نزهة فلسفية في غابة الأدب

حوارية بين الروائية- الفيلسوفة آيريس مردوخ والفيلسوف بريان ماغي

-القسم الأول-

ترجمة وتقديم : لطفية الدليمي

العلاقة بين الفلسفة والأدب علاقة وثقى نشهدها في التضمينات الفلسفية في الكثير من المنتجات الأدبية لبعض أعاظم الكُتّاب، ونعرف أنّ بعض الكتّاب كانوا أنفسهم فلاسفة محترفين، والأمثلة في ذلك كثيرة ؛ غير أن طبيعة العلاقة وحدودها بين الأدب والفلسفة ظلّت حقلاً إشكالياً منذ العصر الإغريقي وحتى يومنا هذا.

يسرّني أن أقدّم في هذا القسم - وبضعة أقسام لاحقة - ترجمة للحوارية الرائعة عن طبيعة العلاقة بين الأدب والفلسفة والتي عقدها الفيلسوف البريطاني الشهير (بريان ماغي Bryan Magee) مع الروائية - الفيلسوفة الراحلة (آيريس مردوخ Iris Murdoch) ، وقد سبق لي تناول جوانب من فكر هذه الفيلسوفة المميزة في حوار سابق منشور في المدى ؛ أما بالنسبة إلى (بريان ماغي) فهو فيلسوف ، وسياسي ، وشاعر ، وكاتب ، ومقدّم برامج بريطاني ولِد عام ١٩٣٠ ويُعرَف عنه مساهماته الكبيرة في ميدان تقديم الفلسفة إلى العامّة وجعلها مادة تحظى بالمتابعة الجماهيرية القوية ، وهو صاحب مؤلفات كثيرة في هذا الميدان.

أذيعت هذه الحوارية على البرنامج الثقافي للتلفزيون البريطاني عام ١٩٧٨.

▪المترجمة

لطالما كان بعض عظام الفلاسفة كُتّاباً عظاماً بحسب مايعتقد الأدباء العظام ذوو الصنعة الفنية الراسخة ، وأظنّ أن الأمثلة الأكثر تعبيراً عن هؤلاء الكتّاب – الفلاسفة هي : أفلاطون ، القديس أوغسطين ، شوبنهاور ، نيتشه ،،، وثمة آخرون وإن كانوا لايعدّون قامات عظيمة مثل السابقين الذين ذكرتهم لكنهم كانوا بالتأكيد كُتّاباً على قدر كبير من الصنعة الجيدة : ديكارت ، باسكال ، بيركلي ، هيوم ، روسو . في وقتنا الحاضر (وقت إجراء الحوار ، المترجمة) فإن كلّاً من برتراند راسل و جان بول سارتر قد مُنحا جائزة نوبل للأدب ؛ لكن ثمة في الوقت ذاته فلاسفة عظامٌ هم كتّاب سيئون ، ويحضر في الذهن على الفور كانت وأرسطو اللذان كانا فيلسوفين عظيمين وإثنين من أكثر الكُتّاب رداءة في الكتابة الأدبية ، أما آخرون سواهم – مثل القديس توماس الأكويني وجون لوك – فكانوا على قدر غير قليل من الركاكة الأدبية . الأمر بالنسبة إلى هيغل مختلف عمّا سواه ؛ فقد صار عمله أنموذجاً للكتابة المكتنفة بالغموض والتعمية حتى بات الأمر مثار سخرية ومزحة سمجة في سياق الحديث عن الفلسفة الموظّفة في الكتابة الأدبية ، وأظنّ من جانبي أن هيغل هو الكاتب الذي تتطلّب قراءته جهداً ومشقة غير مجدية أكثر من كل الكتّاب الآخرين ذوي الشهرة المدوّية على مستوى العالم بأسره.

إنّ ماتكشف عنه الأمثلة السابقة بوضوح هو أن الفلسفة ليست تفريعاً أو حقلاً معرفياً منتمياً للأدب ؛ إذ أن نوعية الكتابة الفلسفية وأهميتها تكمن في إعتبارات أبعد من القيمتين الأدبية والجمالية ، وإذا ماكان الفيلسوف – أي فيلسوف – يجوّد في طريقة كتابته فتلك مزيّة تُحسبُ له بالتأكيد وستجعله على قدر كبير من الغواية التي تدفع الآخرين لدراسته ؛ غير أن الكتابة الفاتنة لن تجعل منه فيلسوفاً أفضل ، وأقول هذا بوضوح صارم ومنذ البدء لأنني وفي سياق هذه المحاورة سأتناول بعض الجوانب التي يمكن أن تكون مناطق تداخل بين الفلسفة والأدب في عمل كاتبة تمتدّ خبراتها لتشمل عالمي الفلسفة والأدب معاً . آيريس مردوخ في وقتنا الحاضر روائية ذات شهرة عالمية مدوّية ؛ غير أنها قبل أن تغدو روائية ناجحة عملت فيلسوفة وأكاديمية وأستاذة للفلسفة في جامعة أكسفورد المرموقة ولفترة قاربت الخمسة عشر عاما .

▪بريان ماغي

ماغي : عندما تنغمرين في كتابة رواية أو في الكتابة الفلسفية ، هل ينتابك شعورٌ واع دوما بأن هذين الحقلين متمايزان عن بعضهما ويمثلان حقلين مختلفين أشد الإختلاف في الكتابة ؟

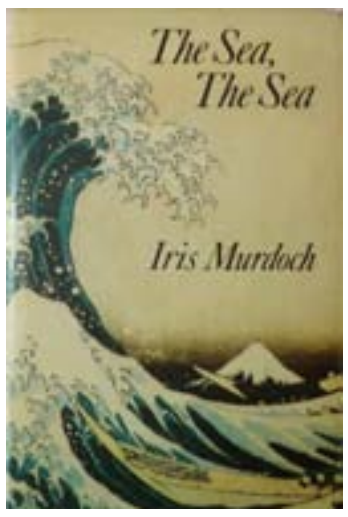

مردوخ : نعم أنا مدركة لهذا الأمر تماماً . الفلسفة تبتغي التوضيح والإستفاضة في كشف الدقائق الجوهرية للأمور ، وهي تحدّد ومن ثمّ تحاول حل بعض أعقد المعضلات الإشكالية المعقدة ، وبناءً على هذا الأمر ينبغي للكتابة الفلسفية أن تخدم هذا الهدف بكفاءة ، ويمكن في هذا السياق القول إن الكتابة الفلسفية السيئة لن تكون فلسفة على الإطلاق ؛ في حين أن العمل الفني السيئ يمكن أن يُعدّ فناً في نهاية المطاف . ثمة الكثير من الطرق المتاحة لإبداء إمارات التسامح مع الكتابة الأدبية المتهافتة بعض الشيء ؛ لكن مامن سبيل للتساهل مع الكتابة الفلسفية غير المنضبطة . الأدب يمكن أن يُقرأ من قبل الكثيرين ذوي مشارب وأهواء شتى ؛ أما الفلسفة فلاتُقرأ إلا من قبل نخبة قليلة إذا ماقورنت بقرّاء الأدب ، والفنّانون الخلاقون والمنضبطون هم نقّاد ذاتيون لأعمالهم ولايعملون تحت ضغط الكتابة لطائفة من " الخبراء " في ميدانهم ، كما أن الفنّ هو ذاته صنعة مطلوبة لأجل المتعة ؛ لذا فهو يحوز على الكثير من المزايا المبهجة التي تجعله مطلوباً ومرغوباً أكثر من سواه من الفعاليات البشرية . الأدب يمتّعنا ويملأ أرواحنا بالبهجة على مستويات مختلفة وبأنماط مختلفة هي الأخرى ؛ فهو مليء بالحيل والسحر والأجواء الإيهامية المقصودة . يمكن إجمال الحكاية في العبارة التالية : الأدب يوفر المتعة ويفعل الكثير من الأمور ، أما الفلسفة فتفعل أمراً واحداً فحسب .

ماغي : بعد أن قرأتُ العديد من كتبك (والفلسفية من بينها) أصبحت واضحة لديّ تلك الحقيقة الصارخة في أنّك تعتمدين عبارات مختلفة في تلك الأعمال : العبارات في أعمالك الروائية مبهمة من حيث أنها مكتنزة بالدلالات التضمينية والإشارات والغموض ؛ في حين أن العبارات في أعمالك الفلسفية طافحة بالشفافية والغايات الصريحة لأنها تبتغي قول شيء واحد محدّد في كل مرة .

مردوخ : نعم هذا صحيح . الكتابة الأدبية هي فنّ ، وهي أحد أوجه الأشكال التعبيرية الفنية التي يمكن أن تتفاوت بين الضّعة والعظمة ؛ لكنما إذا كان الفنّ أدباً فهو يبتغي مقصداً مشحوناً بالدلالات الفنية المتاحة : اللغة في الرواية تُستخدَمُ بطريقة مراوغة للغاية تبعاً لطبيعة العمل الروائي وطوله أو قصره ؛ لذا ليس ثمة أسلوب أدبي وحيد متفرّد أو مثالي على الرغم من قناعتنا بوجود كتابة جيدة أو سيئة . لطالما وُجد – ويوجد – بالتأكيد العديد من المفكّرين المتَفرّدين العظام الذين كانوا كُتّاباً عظاماً في الوقت ذاته ؛ لكنني لن أدعوهم فلاسفة ، مثل كيركيغارد ونيتشه . من الطبيعي أن يتمايز الفلاسفة فيما بينهم وأن ينتهج بعضهم أسلوباً أكثر توظيفاً للدلالات الأدبية من سواه ؛ غير أنني أجد نفسي مدفوعة بغواية القناعة بوجود أسلوب فلسفي مثالي متفرّد يمتلك خصائصه المعلومة في الوضوح والصرامة – ذلك الأسلوب المقتصد البعيد عن السمات الأنوية والمتّسم بوضوح صارم بعيد عن الملاعبات اللغوية . ينبغي على الفيلسوف المتمرّس في صنعته الفلسفية أن يحاول توضيح مقاصده بالضبط وأن يتجنّب التفخيمات البلاغية الطنّانة وغير المجدية ؛ لكن هذا لايعني بالطبع إستبعاد حسّ الطرافة وبعض الفواصل الوقتية التي تشكّل محطات إستراحة للقارئ ، ولكن ينبغي على الفيلسوف في كلّ الأحوال – كما أظنّ – أن يتحدّث بصوت محدّد بارد واضح يمكن تمييزه متى ماوجد نفسه يتصدّى لمعالجة واحدة من المعضلات الجوهرية في عمله الفلسفي .

ماغي : إن عدد الذين إنغمسوا في الكتابة الأدبية والفلسفية على المستوى المهني هو عدد قليل بالطبع ، وأنتِ واحدة بين هؤلاء القلّة النادرة الذين يمكنهم تشخيص الفروق الدقيقة بين الكتابة الأدبية والفلسفية مستندين على خبرات موثقة من واقع عملهم في المجالين معا . هل يمكنكِ الإستفاضة أكثر في هذا الشأن ؟

مردوخ : الكتابة الفلسفية ليست شكلاً من أشكال التعبير الذاتي ؛ بل هي تنطوي على كبح منضبط للصوت الذاتي . بعض الفلاسفة يطيب لهم الحفاظ على نوع من الحضور الشخصي في أعمالهم ؛ فمثلاً يفعل كلّ من هيوم و فيتغنشتاين هذا الأمر وبطرق مختلفة ، ولكن الفلسفة في نهاية الأمر تمتاز بصوتها الصلب الواضح غير المشخصن ولايمكن أن نتوقع إنقلاب الحال لما هو معاكس لهذه الخصائص الراسخة في الكتابة الفلسفية . الأدب ، بالطبع ، هو الآخر ينطوي على شيء من ضبط الصوت الذاتي وتحولاته خلال العمل الأدبي ؛ بل حتى يمكن للمرء لإقامة نوع من التماثل بين الفلسفة والشّعر الذي أراه أصعب أشكال الكتابة الأدبية وأكثرها تطلباً ومشقة : يتطلّب الإثنان (الفلسفة والشعر) ضغطاً وتنقية للعبارات المكتوبة التي تبتغي إدماج الفكر في اللغة وبطريقة محددة وشاقة للغاية ؛ ولكن يبقى دوما ثمة نوع من التعبير الذاتي في الأدب مثلما سيوجد دوماً قدر من المراوغة والتعمية في كل الاشكال الفنية المعروفة ، والكاتب الأدبي يترك قاصداً مساحة من الحرية للقارئ لكي تكون ملعباً خاصاً له يستطيع فيها إعادة تشكيل رؤيته الشخصية بشأن مايقرأ ، أما الفيلسوف فلايمكن (والأصحّ أن أقول لاينبغي) أن يترك أية مساحة للقارئ لكي لايتيح له إعادة تشكيل العمل الفلسفي كيفما تقوده رغباته .

ماغي : قلت في جواب سابق أن الفلسفة تبتغي توضيح الأمور في حين أن مهمة الأدب هي إضفاء مسحة من الغموض والتعمية عليها . أفترض أن ملاحظتك هذه ذات أهمية جوهرية للروائي والكاتب المسرحيّ الذي يتطلّع كل منهما لتخليق صورة خيالية أقرب إلى وهم ، كما أن ملاحظتك مهمة بذات القدر للفيلسوف الذي يسعى لطرح كل الأوهام واستبعادها على النقيض من عمل الروائي .

مردوخ : الفلسفة لاتسعى إلى بلوغ أي نوع من الكمال الشكليّ كغاية في ذاته . الأدب يكافح وسط لجّة المعضلات المعقدة للشكل الجمالي المطلوب في محاولة إنتاج نوع من الإكتمال الأدبي والفني ، وثمة عنصر من اللمسة الحسية بالأشياء في كل شكل أدبي . ينحو الأدب نحو بلوغ النهايات المكتملة ، بل وحتى في النصوص الأدبية المتشظية المستلة من أعمال أكبر فإننا نلمح فيها توقاً لأن تكون جزءاً من نسق كلي عام . الأدب بعد كل شيء هو (في أغلبه الأعمّ) عمل فني ؛ بينما الأعمال الفلسفية أمر مختلف تمام الإختلاف ، وقد يحصل في أحايين قليلة للغاية أن يكون عمل فلسفي ما عملاً فنياً في الوقت ذاته مثلما هو الحال في الندوة الأفلاطونية Symposium ؛ غير أن مثل هذه الأعمال تبقى حالات إستثنائية غير قياسية ، والحقّ أننا لايمكن أن نقرأ الندوة الأفلاطونية ونفهم متبنياتها الفلسفية إلا بمعونة الإرشاد الذي تجود به الأعمال الفلسفية الأخرى لأفلاطون . تبدو الفلسفة عند مقارنتها بالأدب مادة إلتفافية كثيرة التفريعات وعديمة الشكل حتى عندما يحاول الفيلسوف توضيح موضوعة محددة مفرطة في تعقيدها الشكليّ ، والفلسفة بهذا المفهوم تبدو مسألة تختصّ بالحصول على موطئ قدم مناسب عند بحث معضلة فلسفية محددة ومن ثمّ الثبات على ذلك الموطئ والمضيّ في تعزيز جاهزية المرء لإعادة إكتشاف ومساءلة تلك المعضلة في كل مرة يحاول فيها تجريب حلول وصياغات مستحدثة مختلفة عن سابقاتها . إن قدرة المجالدة الصبورة على إستكشاف معضلة ما هي مايميّز الفيلسوف ؛ في حين أن الرغبة الحارقة لبلوغ الحداثة وتخليق أنماط غير معهودة هي مايميّز الفنّان والكاتب في العادة .

منطقة محررة

▪ نجم والي

لسنا غير حيوات تروي بعضها

عجيبة هي الأنوات التي التي اخترعها مؤسس الحداثة الشعرية البرتغالية فرناندو بيسوا، كأنها شخصيات مستقلة، لها حياتها، مساراتها، بل لها مكان وُلدت فيه ومكان آخر ماتت عنده، ومن يقرأ ما كتبه بيسوا تحت إسم إحدى هذه الأنوات سيكتشف مباشرة استقلالية كل نص عن الآخر، وكيف أن المكان الذي تخيله الشاعر لولادة أناه أثرت على شكل ومضمون النص، على المفردات والصور الشعرية، فشخصية وُلدت في الريف تكتب قصائد تختلف عن شخصية ولدت في المدينة، وشخصية ولِدت في المدينة تختلف هي الأخرى عن شخصية ولِدت عند مدينة تقع على البحر، كأن الشخصيات تلك التي ليست من اختراع بيسوا، بل هي قدره الشخصي ذاته، أنه كل هؤلاء، اسماً ومنشئاً وترعرعاً وتربية وذوقاً، ذلك ما أفكر به كلما تجولت في مدينته التي أحبها، رغم ما واجهه من مواطنيه من حيف وتصغير، ربما فكر بيسُوا بهذا أو ذاك، ولا أدري ماذا سيقول بيسوا لو قرأ هذه الكلمات، أو عرف أن أحداً سيأتي من بلاد بعيدة، غريب حقيقة عن هذه المدينة، من أجله هو وحسب، يصعد شوارع لشبونة وينزل، يسير على خطاه، يبحث عن آثار تركها وراءه، كأنه لا يصدق أن صديقه مات، وأن مَنْ مات في ٣٠ نوفمبر ١٩٣٥ وبتشمع الكبد، هو أحد الشخصيات التي إخترعها بيسُوا على هواه، والتي وُلدت من عقله وقلبه، وعاشت معه جنباً مع جنب:

البرتو كائيرو، ريكاردو رايس، ألفارو كامبوس، أنتونير مورا، فرناندو سواريش، بيثينته كيديس، الكسندر سيارج، وآخرون تركهم تباعاً، أو أماتهم مبكراً. لكن يظل الثلاثة الأوائل هم الشخصيات الأكثر قرابة له، الشعراء الثلاثة هؤلاء الذين انبثقوا من داخله كما لو كانوا شخصيات اختلقها روائي. هذا ما أراده الشاعر أو على الأقل كما نراه نحن دون أن نجعلهم متماثلين معه كما سعى هو دائماً، تطابقاً مع ما كتبه ذات مرة، بأن "يصبح الشاهد الوحيد للحياة دون أن يمتزج معها" محاولة غير نافعة، فبيسوا في النهاية هو كائيرو، كامبوس، رايس، مثلما يكونون هم معاً، هذا الـ "بيسوا" الذي من خلالهم حقق نفسه لكي ينسى وجوده الميتافيزيقي في الحياة،، قبل أن يموت وكان أتم للتو السابعة والأربعين.

في كل رحلاتي إلى لشبونة وتجوالي فيها، في كل ما كتبته لاحقاً من مقالات عن صاحب "البحار"، "دكان التبغ"، "رسائل إلى أوفيليا"، "كتاب اللاطمأنينية"، و"يوميات البارون دي تايبه"، حضر الثلاثة هؤلاء معي، وكان هو بيسُوا الرابع المتُخيل الذي يصعب تعريفه في خانة أو وضعه في مكان، أنه شخصية متعددة الجوانب، منقسمة، تعيش من التناقض الذي تصنعه في نفسها ولنفسها، "لست أحد الكتاب، إنما أنا الأدب كله"، كأنه يشير بقوله ذلك إلى حدث قدري، ليس بالسيء وليس بالجيد، قدر لا حيلة للمرء إزاءه، أنه واقعة وحسب. ربما هو اليتم المبكر الذي ترك تأثيره الكبير على حياته، وجعله يشعر بـ "تلك الحاجة لتزويد العالم بشخصيات خيالية"، من أحلامه المبنية بصرامة، يخترع "شخصيات مرئية بوضوح فوتوغرافي ومفهومة داخل أرواحها"، كما كتب ذات مرة؟ من يدري؟

في الثلاثين من نوفمبر الماضي وقفت عند قبر فرناندو بيسُوا في لشبونة، كي أنثر االزهور عليه على عادتي كل عام، القرنفل التي أحبها بالتحديد، كي أحكي له أيضاً عن أصدقائه الجدد الذين إنطلقوا بالبحث عليه، في كل مكان، وأنا واحد منهم، لا يهم أين أتواجد، أين أتنقل، واين أعيش، في بغداد أو لشبونة، في نيويورك أو برلين، فنحن في النهاية، كما رسم لنا هو المتميز في تفرده ذاته، ليس غير حكايات تتوزع في كل مكان: "حيوات تروي بعضها".

أن صديقه مات، وأن مَنْ مات في 30 نوفمبر 1935 وبتشمع الكبد، هو أحد الشخصيات التي إخترعها بيسُوا على هواه، والتي وُلدت من عقله وقلبه، وعاشت معه جنباً مع جنب

ايلينا فيرانتي :هكذا أصبحتُ روائية

ترجمة/ احمد الزبيدي

دأبت على كتابة مذكراتي لعدة سنوات وانا فتاة صغيرة. كنت مراهقة خجولة .و كل ما كنت اجيد قوله هو كلمة نعم، ومعظم الاحيان كنت أبقى صامتة .اما في مذكراتي، فقد كان الامر مختلفا ، كنت اترك لنفسي العنان؛ وأسرد بالتفصيل ما يحدث لي يوميا، حتى الاشياء الخاصة جدا والغاية في السرية وكل ما كان يخطر ببالي من أفكار جريئة كنت ادونه على الورق. لذلك كنت خائفة جدا مما كنت افعله ؛ فقد كنت أخشى أن تكتشف عائلتي، وخاصة والدتي، تلك المذكرات وتقرأها . وهكذا كنت دائما اجد أماكن اختباء آمنة والتي سرعان ما تكشفت لي انها لم تكن آمنة.

لماذا كنت أشعر بالقلق؟ لأنني كنت خجولة جدا، في حياتي اليومية،، وحذرة للغاية،حتى أنني كنت بالكاد اتنفس، لكن كتابة المذكرات خلقت عندي رغبة قوية وحنين جارف لاكتشاف الحقيقة. اعتقدت أن المرء عندما يقرر ان يكتب فليس من المنطقي أن يخفي او يكتم شيئأ، او يفرض رقابة على نفسه، ونتيجة لذلك فان اغلب الاشياء التي كتبت عنها – وربما كانت تلك هي الاشياء الوحيدة التي رغبت في الكتابة عنها – هي تلك الاشياء التي كنت أفضل أن ألتزم الصمت عندما يدور الحديث عنها والجأ من بين أمور أخرى إلى تلك المفردات التي لم اكن اجرؤ على استخدامها في حديثي مع الاخرين.

وهذا الامر استنفذ قواي. فمن ناحية، كنت ابذل قصارى جهدي لان اكتب في كل يوم لإثبت لنفسي أنني انسانة صادقة للغاية، وأن ليس هناك شيء يمكن أن يمنعني من فعل ذلك ؛ ومن ناحية أخرى، كنت أشعر بالرعب خوفا من ان شخصا ما قد يقرأ ما كتبت .

هذا التناقض عاش معي لفترة طويلة، وفي نواح كثيرة لا يزال يعيش معي حتى اليوم. وما لا يظهر في كتاباتي ساحتفظ به في رأسي، فلماذا كنت قلقة من أن احد ما سيكتشف مذكراتي؟

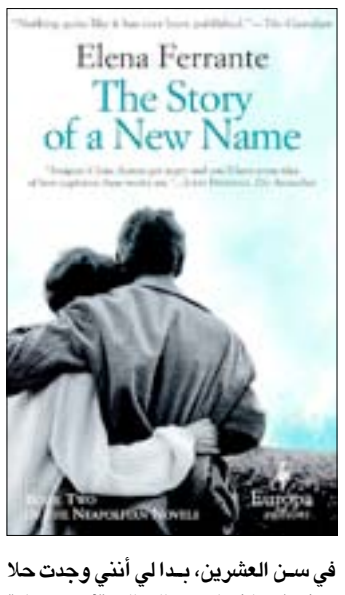

في سن العشرين، بدا لي أنني وجدت حلا يرضيني. اضطررت إلى التوقف عن كتابة مذكراتي وتحويل رغبتي في قول الحقيقة – حقائقي التي لا استطيع الجهر بها – إلى كتابة قصة من بنات خيالي. سلكت هذا الطريق جزئيا لأن اليوميات نفسها بدأت تصبح مثل الرواية. على سبيل المثال لم يكن عندي الوقت في كثير من الأحيان، لاكتب في كل يوم، ونتيجة لذلك بدا لي أن ذلك الخيط الذي يربط الأسباب بالنتائج قد انقطع.. وبذلك أعطيت للحقائق، والتأملات، ذلك التماسك الذي لم يكن موجودا دائما في الصفحات التي كنت اكتبها يوميا. لذلك ربما كانت تجربتي في كتابة المذكرات والتناقضات التي تحيط بها هي من حولتني إلى كاتبة روائية . في القصص التي اخترعتها، شعرت أنني – أنا وحقيقتي – نعيش في حالة أكثر أمانا نوعا ما.

في الواقع، بمجرد أن اكتسبت الكتابة الجديدة الأرضية المناسبة لها، تركت كتابة مذكراتي. فعلت ذلك لأن المذكرات كانت تبدو شيئا فجاً، لا يحتوي على أفكار جديرة بالاهتمام، مليئ بالمبالغة الصبيانية، وقبل كل شيء، بعيدا عن ما اتذكره الآن من سنوات المراهقة. ومنذ ذلك الحين، لم اعد أشعر بالحاجة إلى كتابة المذكرات او الاحتفاظ بها

عن الغارديان